الدخول إلى منزل الكتابة
«الطفولة والصبا»

عبد الستار ناصر

الجزء الذي أكتبه اليوم، هو الرابع بين أجزاء تجربتي في كتابة القصة القصيرة، مجلة الأقلام في عددها السادس عام ١٩٨٨ نشرت الجزء الثالث تحت عنوان (الوصول إلى بيت السفر) وكانت قد نشرت الجزء الأول في عددها الأول عام ٨٧ وعنوانه (الدخول في بيت الماضي).. أما الجزء الثاني وكان بعنوان (الدخول في بيت الحاضر) فقد قرأته في أمسية اتحاد الأدباء في العراق يوم ١٩ آب ١٩٨٧.

* * *

العقرب التي خرجتْ من سرداب البيت، ذاتَ مساء ـ وأنا لم أزل في العاشرة من عمري ـ أخبرتني: إننا فقراء.. العقارب لا تعرف الطريق إلى بيوت الأغنياء.

ما كنتُ أعرف أن بعض الثياب التي نلبسها في الشتاء، تأتي عن طريق الشفقة وأن إيجار البيت الذي نسكن فيه، كان من أموال الدولة المجمدة.

أدري، منذ طفولتي، أن شقيق أبي الذي هاجر إلى أميركا وماتَ هناك في نيو أورليانز كان قد تبرع طوال حياته، أن ينقذنا من الجوع والعهر ومن بيع ماء الوجه، وكان يرحمه الله، يرفض أن نقول «شكراً» في الجواب على دولاراته ورسائله وزكاته ومعونته. عبقرياً كان عمي، فقد قال يوماً قبل أن يهاجر إلى نهاية العالم: لا بد من مغامر واحد في هذه العائلة قبل أن نموت جميعنا.

لم تستطع سلطة نوري السعيد أن تطارد عمي، فهو مجرد إنسان عادي لم يُهرّب أيّ شيء من العراق سوى عقله الكبير. علمني هذا الرجل الرائع، أن المغامرة مع الحياة لا تأتي عن طريق التخطيط، إنها حالة في الانسان، تمشي كما الدم، وتسري بين العروق، حالة أصيلة لا تُشترى ولا تباع.

* * *

شرخ كبير في جدار البيت، رمّمه أبي عشرات المرات، غطّاه بالجص والسمنت والتراب، ذبح خروفاً تحتَ ذاك الشرخ العجيب ورسم بأصابعه «كف العباس» وسال الدم على نصف الحائط، لكن الشرخ، بعد يوم أو أربعة أيام أو أسبوع واحد ـ إذا مسّنا الحظ ـ يزداد إتساعاً وينفلق الجدار.. لا أحد يعرف السرّ، لكن جدتي أخبرتنا: إن البيت تنقصه الصلوات والبخور، إذ لا أحد منا يصلّي فيه ولا يصوم وإن إبليس يناسبه العيش في مكان لا يقرأ أهله حتى القرآن.

ومنذ تلك الليلة، لم تفارق دارنا رائحة البخور، ولم يفارق القرآن رفّ الخشب المغطّى بشرشف جاءنا هدية من المدينة المنورة، ثم غطينا شرخ الجدار بآية من القرآن عشتُ أمامها خائفاً هلعاً وأنا أنطقها ـ منذ طفولتي ـ بهمس مذعور:

ـ وأعوذ بكَ ربِّ أن يحضرون.

ونسينا الشرخ الذي يمتد وراء السجادة المزخرفة بالسواد، لم يذكّرنا بالشرخ سوى النمل والدود والصراصر، والعقرب التي خرجتْ من سرداب البيت في طريقها إلى شرخ الجدار، بعد أن أخبرتني: إننا فقراء فعلاً.

* * *

في محلة الطاطران، ترك اليهود نصف أمراضهم، جرثومة الحقد

والحسد والبخل والنفاق دخلتْ إلى طبائع أهل الزقاق من الشيوخ والنساء اللواتي يشبهن الساحرات.

لا أحد منهم يعرف كيف يرحم جاره إذا ما استعان به، طمعٌ عجيب كان يسري في الغضاريف، لا يزاحمه سوى جشع أكبر إذا ما تاجر بعضهم بأفكار اليهود ومشاريعهم السود التي تركوها في جماجم العجائز من المرابين والقصابين الذين يبيعون لحم الحمير ممزوجاً مع لحم الخراف ومخلوطاً بحفنة من الفلفل وبهارات الكمون والكاري والقرنفل التي تخفي رائحة الحرام.

كان معلم اللغة العربية، يحب اليهود ويذكرهم بألف خير، وكان هذا المعلم الذي يتبرّج كما النساء، يغازل أُمي أمام عيني، فهو جارنا منذ غادر اليهود أزقة بغداد، وهو أول إنسان في حياتي يسألني - باستمناء قذر - عن أسرار أبي وأُمي. . أعترف، وأنا في السابعة من عمري، بأنني عشت أول رغبة في القتل وما زالت أصابعي يومها تمسك القلم الرصاص برخاوة وخوف وضعف.

أذكر أنني في واحدة من أيام العيد، أحرقتُ بعض الثياب العتيقة ورميتها على حوش معلم اللغة العربية، وهربتُ من دارنا لئلا يكتشف البعض جريمتي، لكنني ما أن رجعت في أول المساء حتى أيقنتُ - بسبب الصمت الذي يلفّ بيت جارنا وبيتي - أن الثياب التي أحرقتها بنفسي ورميتها على بيت جاري، كانت قد انطفأت قبل أن تصل شرارتها إلى أحد أو شيء ما. .

كان بين سطح دارنا ودار معلم اللغة العربية، مجرد جدار أتسلقه في نصف دقيقة، قطعتُ من عمري ما يزيد على ثلاثة أعوام وأنا أفكر في الثأر من هذا الرجل الذي يكرر «من علّمني حرفاً ملكني عبداً» ثم يمشط شعر رأسه أمام التلاميذ ويستخدم الملقط في رفع شعرة زائدة في حاجبيه أو لحيته ويبتسم في وجهي - دون بقية التلاميذ - كمن يريد أن يساومني قبل أن يغازل أمي. .

كانت أمي واحدة من أجمل نساء الطاطران، إذا خرجتْ من البيت يطاردها عشرات الشبّان، ويقف احتراماً وخشوعاً واشتهاء نصف رجال المحلة، كنتُ أعرف أن الدلال الذي يحيطونني به، شبّان المحلة ورجالها، مجرد رشوة، حتى أسكت إذا ما أراد أي واحد منهم مغازلتها أو السير خلفها حتى يرى مفاتنها التي لم تستطع العباءة السوداء أن تخفيها مطلقاً. .

لكن معلم اللغة العربية، كان أشرس كائن ممن أسرفوا في مغازلتها والتحرش بها، كنتُ أتغوط على سطح جارنا، وبين شهر وآخر كنت أكسر واحدة من زجاجات بيته، ثم قررت أن أهرب من دروس العربية، لئلا أراه، ولم يكن هذا القرار ملك يدي، فهو - نفسه - معلم الرياضة والحساب، بل ومعلم الدين أيضاً. . وكم كنتُ أحسد أبناء الصابئة يومها، إذ يخرجون من قاعة الدرس في حصة الدين، لا يصغون إلى صوت هذا البغل الذي يردد بلا حياء: «تَبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير». .

أنا الآن «ممنون» جداً من هذا المعلم السيء، فقد دفعني إلى الكتابة، دون أن يدري، ذلك أنني تعلمتُ الانتقام منه في دفاتري، عندما رحتُ أكتب أسوأ الصفات في حقه، وما أن أرى تلك الصفات عاجزة عن رسم ملامحه كما أريد، حتى أنقب عن صفات أسوأ. . ولم أكتشف يومها أنني بدأتُ الكتابة.

ذاكرة الطفولة، مصنع خرافي، يتشابك فيه الخيال مع الحقيقة، يتسرب ماء الواقع تحتَ سراديب الوهم. . طفولتي، عود الكبريت الذي أيقظ شياطيني عندما أشعل النار قرب كهوفهم. . ذاكرتي لا شأن لها بذكرياتي، هناك جزء من المرارة والجوع والجنون والرعب والفساد لا تفهمه الذكريات ولا يكتب عادة في دفاتر المذكرات. .

الذاكرة امرأة عاهرة، تتعرى من ثيابها في حضرة من تشاء أو من يشاء، لكن الذكريات أو المذكرات، جسد عاقل من الأوراق والكلمات، جسد يتستر على زمانه وأسراره، لا يكشف غير المسموح به ولا يعطي للناس غير أعضاء مستورة مكتوب على ثوبها الخارجي «مسموح ومبارك من الرقابة». . لا أحد يدري أيّ نفور وأي جنون وأي انعتاق وأي هوس تمارسه تلك الأعضاء المستورة إذا ما عشنا نفورها وجنونها وانعتاقها وهوسها خارج بيت الرقابة وسمعته الطيبة التي تشبه القصص القصيرة الطيبة الصالحة للنشر دائماً، مهما اختلفت سياسة هذه المجلة عن غيرها!. .

طفولتي ورمٌ أسود من الشكوك والفقر والعيوب التي لا ينافسني على كنزها أيما طفل على امتداد المحلة. . هي كنز إبداعي الذي طاردني وأرغمني على الكتابة. . لا أنكر أن أبي، وإخوتي، وأخياتي أول من دفعني إلى بيت القصة - سامحهم الله على أمراضهم وعلى وشم اليهود الذي ما زال محفوراً على جلودهم - فقد انتقمتُ من شرورهم في عشرات القصص التي أنقذني الشيطان حقاً يوم علّمني أعظم الوسائل في القتل، دون رصاص وبلا سموم أو مؤامرات. . كنت أقتلهم في قصصي، وأضحك منهم - تماماً كما فعلتُ مع معلم اللغة العربية - وأراهن أمام الدنيا كلها، بأنني الوحيد الذي انتصر على قاتليه بلا رصاص ولا سموم ولا مؤامرات.

هل يدري بعض القراء أن الكتابة يمكنها أن تعالج أخطاء النفس وترحم المبدع من ارتكاب مئات الجرائم؟

سيقول واحد من النقاد المساكين إن الإبداع لا شأن له بأمراض المُبدع، ثم يكتب آخر: إن القصة القصيرة أو الرواية أكبر من مجرد انتقام عابر. .

وهذا الكلام سيضاف حتماً إلى مجزرة النقد، وسوف تبوّب فقراته - لاحقاً - في مسلخ النقاد. أريد أن أخبركم أن ديستويفسكي لم يكن في أحسن أيامه إلّا حالة باذخة من حالات راسكولنيكوف وإذا ما عاش هذا الكاتب العملاق حتى يومنا هذا، سيعترف أمامكم بما أقول. . وإذا ما انتقم أيّ مبدع في أيما عمل كبير مما قرأنا، سنعرف - إذا ما اجتهد النقد وتوفرت المعلومات وأسرفنا في الدخول إلى عالمه الشخصي - أن بعض انتقامه داخل عمله

القصصي، لم يكن غير بديل سافر عن عجزه المادي في الثأر من معذّبيه ومن الراغبين في تمزيقه حياً.

واعذروني، إذا ما اعترفتُ لكم بجرائمي، وهي كما ترون مجرد جرائم من حروف أكتبها على ورق أبيض، لم أفعل فيها سوى أنني كنت أصرخ في بئر مهجورة، لم يصغِ إلى صوتي أو صدى صوتي إلّا عدد قليل جداً من البشر. . وأنا مع هذا العدد القليل سأكتفي وأقول:

- حمداً لله، هناكَ من رآني أصرخ في بئر مهجورة.

* * *

من يتذكر سينما «الفردوس»، ساحة «الوصي» التي صارت فيما بعد «النهضة»؟ فلمان في آن واحد، عربي وأجنبي. . ذاك التعبير كان يسحبني من «دشداشتي» وأنا طفل في الثامنة من عمري.

لا أمنع نفسي - الآن - من البكاء على طعم «العمبة والصمون» وكيس «الشامية» و«الحمص». . درهم واحد كان يكفي أن تأخذ به من السعادة نصف ما تأخذه اليوم بألف دينار.

سينما الفردوس أعطتني في تسع سنوات، بعض عاداتي ومزاجي واعوجاج مخي وانفلات شبقي وعلّمتني المغامرة وطيبة القلب وأجمل سيئآت العمر، سأرفض - أمامكم - نسيان فريد الأطرش وسامية جمال وعبد السلام النابلسي وفريد شوقي وفاتن حمامة، سأقول بلا خجل أن روبرت ميتشوم وغريغوري بيك وبيتي ديفز وغلين فورد وجيمس ستيوارت وناتالي وود وأورسون ويلز ومارلين مونرو وآفا غاردنر وكلارك جيبل وجاك ليمون - عيني على جاك ليمون - وحده كان مدرسة من الفن والعذوبة والإبداع. . بلا خجل أقول، إنهم أشبعوني وعياً وغمروني بالحب والفن وغطّوني بالفرح ورموني إلى القشعريرة المبدعة، وإن أفلامهم عوضتني عن سوء تربيتي في البيت وبين أبناء محلة الطاطران الذين ينتظرون مني دائماً كيف سأروي لهم ما رأيت. .

كنت أقص عليهم أفلام صلاح أبو سيف وكامل التلمساني وهنري بركات، أروي لهم حكاية فلاش غوردن أو طرزان أو الملك كالا، أقطع منها ما أشاء وأضيف عليها من خيالي ومن أكاذيبي وإخراجي ما يجعلني في نظر أطفال محلتي، أخطر من ستيف ريفز وأقوى من شمشون الجبار وأكثر وسامة من جيمس دين.

أنا فخور بكمية الكذب التي رميتها على نبض قلوبهم وفي أدغال عقولهم البريئة، فقد ساعدتني أكاذيبي على الكتابة في وقت مبكر جداً.

من يعجز عن صناعة الكذب وترميم الخيال، أو يعجز عن إبداع الكذبة في طفولته وبدايات صباه، لن يصبح مبدعاً على الاطلاق، إن الولد الصادق دائماً والطيب دائماً، يمكنه أن يصبح قاضياً أو صيدلياً أو مهندساً معمارياً، لكنه سيعجز تماماً عن دخول مملكة الإبداع، وحتى إن دخل الصادق الطيب هذه المملكة وكتب ونشر فعلاً، لن يكون في نهاية المطاف سوى كاتب من نوع محمود تيمور أو أنيس منصور أو أدمون صبري أو مصطفى محمود لكنه أبداً لن يصبح في يوم ما مبدعاً من نمط غارسيا ماركيز أو عبد الرحمن منيف ولا من قبيلة فرانز كافكا أو يوسف إدريس ولا من جمهورية آلبير كامي أو وليم فوكنر.

سينما الفردوس، كانت، بالنسبة لي، مملكة داخل شعاب وانحناءات المملكة العراقية آنذاك، وسلطة «الفردوس» كانت فوق أوامر الحكومة والحاكمين، وما كنتُ أكسبه من حسنات أفلامها في أسبوع واحد، لا تمنحه سلطة الملك فيصل الثاني في عام واحد.

رأيتُ المئات من الأفلام، التي كنا نستوردها من مترو جولدين ماير وفوكس القرن العشرين والمئات من الرقع المصرية التي حفرتْ ملامح عبد الحليم حافظ وشادية وهدى سلطان ونجاة علي في أصغر خلايا العقل، وصارت بكتريا أجسادنا تتفاعل طردياً مع أحزان «الوردة البيضاء» وجرائم إستيفان روستي، نغني مع محمد عبد الوهاب، نتباهى بحفظ قصة الفيلم عن ظهر قلب. . وكانت بنات البيت يرقصن سراً أمام المرآة إذا ما رأتْ إحداهن نعيمة عاكف ترقص في حضرة المعلم محمود المليجي.

كانت السينما، أخطر الدروس التي أدمنتها خارج السماح القانوني لطفل في العاشرة من العمر، وصارت بعد وقت قصير، أول الدروس التي أرفض إلّا النجاح فيها بامتياز خمس نجوم. . وما زلت أدين لهذا العالم المتشعب الرهيب، فهو أول بيت علّمني الكتابة.

الآن،

ماتت سينما الفردوس، قتلوها أمام عيني، صارت مجرد مخزن للخشب، هي التي أعطت الفائدة والمتعة لملايين الناس عبر ملايين الساعات. .

أمنية كبيرة في القلب، أن أرى سينما الفردوس وأجلس أمام شاشتها مرة ثانية، وسوف أرى أي فيلم تعرضه، مهما كان رديئاً وتافهاً، وسوف أقول وأنا أخرج من بابها - من باب ذاكرتي وطفولتي وصباي - إن هذا الفيلم كان أجمل أفلام الدنيا.

* * *

وأنا أتذكر سينما الفردوس، ومدرسة الأشبال، ومحلة الطاطران، لا بد أن يأتي على ذاكرتي ونبض قلبي، أحب أصدقائي. .

كنا ثلاثة أصدقاء، لا نفترق، ولا نختلف إلّا إذا شاء الشيطان أو معلم اللغة العربية، أن يسخر منا في وقت فراغه. . لم نفترق، لم نختلف طوال عشر سنوات من الدراسة والثرثرة والمحبة المعجزة، رغم أننا لا نشبه بعضنا في أي شيء. .

كان حميد جمعة فيلسوف مدرسة الأشبال بلا منافس، ذكاء من النوع الفاجع الممتع، ذكي إلى حدّ أن معلم العربية - الذي كان يغازل أمي - يكره أن يراه معي، خوفاً من عدوى عبقريته لئلا تلبسني فأشعر بما يريد. . ومن يومها بدأت أفهم أن وجهي يعطي فكرة مغلوطة تماماً عن طبيعتي ومستوى يقظتي وذكائي.

أما حسين حسن فقد أحببته كثيراً، لكنه أخذ حبّي كله ـ مخلوطاً بكمية حبه ـ وأعطاه إلى حميد جمعة بلا تردد.

انغمر الأول في السياسة، وراح، حيث لا أدري ماذا حلّ به اليوم، بينما طمس الثاني في الخمرة والهموم وترك الشعر والترجمة والماضي..

ما زالا على قيد الحياة، وهذا عزيز على قلبي. سنواتي بينهما، لا أريد نسيانها أبداً، إنهما ـ حقاً ـ أول أسباب كتاباتي. عندما أصبحتُ في الخامسة عشر من عمري، كنت «أموت» في إحسان عبد القدوس، أبكي مع أبطاله إذا ما تعذّب أو انكسر أي واحد منهم، وأرقص طرباً مع الخائنات من بطلاته إذا ما أعطت إحداهن كنوزها على فراش من حرير، لكن حميد جمعة مزق إحسان عبد القدوس أمام عيني، فورة غضب لا أنساها، وراح يهزأ من طول مراهقتي..

ماذا أفعل؟ أعترف، وأنا لا أشعر بالذنب أو الغباء، لم يستطع أيّ كاتب في العالم أن يرغمني ـ يومها ـ على شراء «عجائبه» كما فعل عبد القدوس.. كان عمري مجرد سنوات قليلة جداً، من أين جاء حميد جمعة بذاك الذكاء المبكر حتى يسخر من أفضل كتّاب الدنيا يومذاك؟؟

بعدها، لم أقرأ عبد القدوس، أو هكذا أقسمتُ ثلاث مرات في جلسة صاخبة مقدسة في بيت حميد جمعة، حضرها ـ متباهياً ـ حسين حسن، وكيف لا يتباهى، هو الذي يشتري مجلة الآداب ويقرأ وليم بليك ووالت ويتمان ومايكو فسكي.

لكنني، بعد أن شبعت من مواعظ الأول ومن سخرية الثاني، بعد أن طال انكساري أمام عيونهم وكاد الدمع أن ينهمر من نبض قلبي، رجعتُ إلى دارنا، وبدأت أقرأ في الجزء الثاني من أنف وثلاث عيون... ثم اشتريت في اليوم التالي آخر اعداد مجلة سهيل إدريس، حشرتُ بين صفحاتها ورقة صغيرة توهم أصدقائي بأنني أقرأ آدغار آلن بو....

وبقيّ إحسان عبد القدوس تحتَ مخدتي ـ كما المراهقات ـ سنة أُخرى، قبل أن أقول له وداعاً، بإرادتي..

حميد جمعة، هو الذي أنبأني ـ ذاتَ صباح ـ وهو يقرأ في رسالة حب كنت كتبتها إلى جارتي، بأنني أكتب «شيئاً» يستحق النشر..

لم أصدقه طبعاً، لكنني فعلتُ برأيه سراً، وكم أصابني الغرور والدهشة معاً، عندما قرأت اسمي في جريدة الأنباء الجديدة في اليوم الرابع من شهر شباط عام ١٩٦٣ إذا لم تكن الذاكرة قد تفسخت وأصابها الخراب.

في ذاك اليوم الاستثنائي الباهر الخطير من حياتي، رأيتُ القاص عبد الرحمن مجيد الربيعي، كان لامعاً بين أسماء من عاصروه، سألني من أكون، فقلتُ كما التلاميذ:

ـ أنا عبد الستار ناصر، كتبتُ قصة في هذه الجريدة.

يومها، كان الربيعي هو الذي يشرف على صفحة «أدب وأدباء» أما أنا فقد بدأتُ في «مجلة القارىء» وهي صفحة لا يكتب فيها غير المبتدئين، ظهر فيها عشرات القصاصين الذين نسمع بهم اليوم، وكان الوصول إلى صفحة «أدب وأدباء» يستغرق أعواماً من التجربة والمغامرات والقراءة وممارسة الكتابة، لكنني ما أن أعطيت قصة «الاعتراف» إلى الربيعي حتى نشرها فوراً.. ولا يدري عبد الرحمن مجيد الربيعي حتى الآن، أنه يومها جاء بأخطر منافسيه في كتابة القصة القصيرة وأعطاه فرصة أن يرى اسمه النور.

حميد جمعة، لا يدري كم هي حصته في حياتي، وكذلك الصديق الرائع حسين حسن، وأنا، وفي هذا الجزء الباذخ من أيام الطفولة والصبا، حريص على الرجوع بذاكرتي إلى أعوام الصدق والبساطة والمحبة التي صنعت شكل كتاباتي، وأعترف بصوت عالٍ وأقول:

ـ أنا لا أعرف هل كان يمكنني أن أتورط في الكتابة إذا لم يظهر هذان الرائعان في حياتي؟

* * *

في طفولتي وصباي، لم أقرأ، لم أسمع أن هناك أدباء في العراق، كان الشارع خالياً منهم، ليس ثمة رنين أو إشارة توحي أو تشير إلى نتاجهم أو ملامحهم، طغيان الكتّاب العرب ـ وخاصة أهل مصر ـ كان هو المنبع الذي نشرب منه، قرأنا المنفلوطي وبكينا معه في العبرات.. أذكر أن هذا الرجل المعمم، كان قد سيطر على مجسّات عواطفنا، وصار فيما بعد سيدنا، فقد فرضناه على مشاعرنا بإرادتنا، ولم نكن يومها نعرف الفرق بين التأليف والترجمة، ذلك أن رواية الشاعر التي أخذت معها نصف آهاتنا ونصف مراهقتنا، جاءت وتسربتْ إلى بيوتنا تحت اسم مصطفى لطفي المنفلوطي ولم نسأل عن المؤلف الحقيقي..

بالنسبة لنا كان المنفلوطي هو الخالق والمبدع، ومن العيب أن نسأل عن اسم آخر ما دام كل واحد من أبناء الماضي لا يريد أن يصدق، بل، لا يريد أن يعرف أبداً أن المنفلوطي كان مجرد مترجم في هذا العمل الذي هزّ أجسادنا وضمائرنا وأبكانا بين سطر وآخر كأننا نبكي أقرب الناس إلينا.

يوسف السباعي، جبران خليل جبران، أمينة السعيد، نجيب محفوظ، توفيق الحكيم، محمد عبد الحليم عبد الله، وعشرات الكتاب، كل واحد منهم أخذ حصته من إعجابي ومن سباقي إليه..

لا أريد نكران الماضي، على حساب الحقيقة، فقد كنت أقرأهم بإعجاب باهر، وفي اليوم الذي جاء فيه يوسف السباعي إلى بغداد، كنتُ أول من اتصل به تلفونياً، حتى أقول ـ كما المعجبين البسطاء ـ بأنني لا أُصدق أن هذا الرجل الخارق يعيش حقاً في بغداد، سألته عن صحة أولاده وعن آخر ما يكتب، ذكرتُ عبر أسلاك الهاتف نادية وبين الاطلال اذكريني ورد قلبي كأنني واحد من أفراد عائلته، وأجاب هادئاً صبوراً على سؤالاتي وسخف استفساراتي،

لكنني يومها كتبتُ في مذكراتي «إن يوسف السباعي جاء بغداد ورحت أحكي معه طوال المساء»!.

عندما قررتُ أن تكون مذكراتي صادقة جداً، شطبتُ بالقلم الماجيك على عبارة «طوال المساء» وكتبتُ مكانها «طوال ثلاث دقائق فقط». .

* * *

بدأتُ مبكراً، والبدايات المبكرة جدّ خطيرة، فقد استلمتُ نصيبي من مؤامرات الكبار وسخريتهم ومباهاتهم أمام هذا الدعيّ الذي يريد أن يكون مثلهم ويدخل قصر الكتابة والشهرة والمجد.

نعم، كنت أريد أن أكون مثلهم، اسمٌ يشعّ بين السطور، على أعمدة الجرائد، وبين طيات المجلات، لكنني أبداً، ورغم بساطتي وحماقاتي وصغر سني، لم أطرح نفسي بالطرق الرخيصة التي اكتشفتها فيما بعد، كانت الكتابة بالنسبة لي مقدسة كما القرآن، أو هكذا أوهمني عباس محمود العقاد وطه حسين وسلامة موسى. سامحهم الله فقد رموني إلى بحيرة من الشعارات والمبادىء، كان الوقت الذي جئتُ فيه قد مزقها ورماها على بحر صاخب وأمواج ترفع من تشاء وتأخذ إلى جوفها القاتل من تشاء. .

لكن الموج الذي أخذني بين غضبه وعنفوانه وجبروته، رماني على جزيرة خالية من الطواويس، بدأت فيها وحدي، أكتب على طريقتي، وأعيش على هواي، لم ألتفت إلى أسلوب المبدع الفلاني الكبير، ولم أتأثر أبداً بما يريد الناقد الفلاني الأكبر. .

تلكَ الجزيرة التي جئتها وحدي، أنقذتني من السرقات والاقتباس وتوارد الخواطر واستئجار الشكل والمضمون، فقد كنت أعيش فيها وحدي، مع طيورها وأسماكها ونخيلها وأشجارها وثمارها، التي كانت أعظم الكنوز. .

وما زلتُ أحمد الله آلاف المرات، وأنا أتذكر أن الطيور والأسماك والأشجار والنخيل والثمار لا يمكن أن تسرق أو تقتبس أو تتكرر أو تستأجر شكلاً لا يناسبها أو تعيش في مضمون لا ترتبط به.

وفي تلك الجزيرة المنسية البعيدة الشاسعة، بدأتُ أخلق أبطالي، أتذكرهم بهدوء وفطنة، يحضرون إلى مخيلتي، فأكتب عنهم بهدوء وفطنة، لا شأن لي بما سوف يقال عني وعنهم، ذلك أن الخالق لا يسأل العبيد فيما أبدع، ولا يريد رأياً فيما صنعت يداه ولا يلتفت إلى مشاكسات مخلوقاته أو منابزات من تهيأ له ـ محض صدفة ـ أن يدخل تلك الجزيرة ويقول فيها رأياً أو يكتب عنها فكرة أو يتوسل الانسان الوحيد الذي عاش فيها، أن يهجرها ويبتعد عنها حتى يعيش مثلهم في ماخور الحياة، يتعلم الشتائم والحقد والضغينة والغيرة والنفاق والحسد الرخيص. .

تلك الجزيرة، كانت مملكتي، وفيها، وعليها توّجت نفسي، مشيتُ بين شعابها وغرائبها، مشيتُ على ترابها وبين طيات طينها النبيل، وقلت: أنا الذي يختار سلوك حياته، وليس من «بشريّ» في العالم كله يمكنه أن يرسم لي أسلوب حياتي أو يجروء على أن يخطط لي أسلوب كتاباتي.

أنا حياتي، وأنا أسلوبي، بها أعيش، وبينهما أتحسس نبض قلبي وأوجاعه ونصائحه التي أمشي على هداها، ذلك أنني ـ منذ نطقتُ اسم أبي ـ لا أحب النصائح مطلقاً ولا أنفّذها أبداً، إلّا إذا جاءت عن طريق القلب، قلبي.

العقرب التي خرجتْ من سرداب البيت، ذاتَ مساء، أخبرتني: إننا فقراء. كنتُ أمشي خلفها، بملابس جاءت عن طريق الشفقة. . كنت أخاف هذه العقرب، لم أتمكن أبداً من سحقها وإنقاذ عائلتي منها. .

اليوم، وبعد هذا الزمن الممتد من وهج الطفولة إلى سن اليأس، اكتشفتُ انني باختياري وإرادتي تركتُ العقرب تسرح وتمرح بين سرداب البيت وشرخ الجدار، ذلك أنها أعطتني ـ إبان خوفي منها ـ كمية من القلق والرعب والتوجس والوساوس ترغمني على البقاء مستيقظاً حذراً، أعوذ بالله أن «يحضرون» كما تقول آية القرآن التي ما زالت حتى اليوم على جدار بيتنا في الطاطران.

لم أكن أدري من هم الذين سوف «يحضرون». . لكنهم، والعقرب معهم، ساعدوني على أن أكون أغنى فقراء العالم. . ساعدوني ـ حقاً ـ على دخول منزل الكتابة، وأرجو أن أبقى بين جدرانه إلى آخر يوم في حياتي.

بغداد